- 6 -

موضوعة "التقدم"

أدخل فكر الأنوار إلى الفكر الغربي الحديث النظر في مسألة "التقدم". فهذه الفكرة هي "البنت الشرعية" لذاك العصر. وما زالت هذه الفكرة راسخة حتى قال إرنست كاسيرر: «ما انوجد عصر غامرته فكرة التقدم الفكري وألهمته وأذكت حماسه بقدر ما هي فعلت ذلك في عصر الأنوار»[20]. وقد عمد مفكرو الأنوار إلى قلب الرؤية "السلفية" إلى التاريخ. هذا المفكر والأديب الفرنسي برناردان دو سان بيير Bernardin de saint Pierre نشر سنة 1737 كتيبا سماه "مشروع النهوض بطريقة حكم الدول"، حدد فيه نظرته إلى الاتجاه "التقدمي" في فهم الحضارة، ووقف بنظره على وجود تعارض بين ما يشهد عليه التاريخ من جهة، والأسطورة القديمة عن وجود عصر ذهبي عاش فيه الناس في وئام من جهة أخرى، أعقبته عصور فضية وبرونزية وحديدية. وبالضد من ذلك، اعتقد سان بيير أن العصر الحديدي قد جاء، في البدء، ممثلا لطفولة المجتمعات البشرية عندما كان الناس يعيشون في فقر ويجهلون الفنون، وتبع ذلك العصر البرونزي، وفيه زاد الأمان، وظهرت قوانين أفضل، وبدأ اختراع الفنون؛ ثم جاء العصر الفضي، ولم تتجاوزه أوربا بعد، ولا شك أن عقلنا قد بلغ مرحلة التفكير في كيفية إمكان الخلاص من الحرب، وبذلك اقترب من العصر الذهبي للمستقبل. ثم إنه نشر سنة 1737 كتابه "ملاحظات عن التقدم المتواصل للعقل الكوني" وذهب فيه إلى أن التقدم أمر حاصل لا يطاله شك أو تعتريه مرية، إذ ما من مقارنة بين أفضل منجزات الإنجليز والفرنسيين في الأخلاقيات والسياسيات ومثيلتها لدى أفلاطون وأرسطو، إلا ومن شأنها أن تثبت إحراز الجنس البشري تقدما ملموسا، وإن كان هذا التقدم ربما

20 - Ernst Cassirer, La philosophie des lumières, op. cit. p. 41.

جاء أعظم بقدر كبير لولا حدوث ثلاث معوقات: الحروب والخرافات وغيرة الحكام الذين صاروا يخشون ما سيتعرضون له من أخطار من جراء تقدم علم السياسة. ومع هذه المعوقات ارتفع معدل التقدم بفعل عوامل عددها سان بيير فيما يلي: ما زاد من ثراء بتأثير التوسع في التجارة البحرية، على ما يعنيه الثراء من زيادة أوقات الفراغ، وبالتالي زيادة الكتاب والقراء. وما زاد من الإقبال في دور العلم على دراسة الرياضيات والفيزياء، مما ساعد على تحرير الفكر من سطوة تقليد الأسلاف وسطوتهم. ولا ننسى ما حققه إنشاء الأكاديميات العلمية من تيسيرات لنقل الكشوفات الجديدة وتعميمها، ولقد ساعد فن الطباعة على نشر هذه الكشوف. وأخيرا، يسرت عادة الكتابة بغير اللاتينية تعريف الجميع بهذه الإنجازات.

بعده ذكر المفكر وعالم الاقتصاد تيرغو في مخطوطة كتابه "أحاديث عن التاريخ العالمي" وفي محاضرتين لاحقتين (1750) أن التاريخ البشري يشهد تقدما ثابت الخطى، رغم تؤدته، للجنس البشري ككتلة واحدة اتجاه كمال أعظم في عصور يتناوب فيها الاضطراب والهدوء. ولا تتحرك عناصر هذه الكتلة، في جملتها، بخطوات متساوية، لأن الطبيعة لا تنعم بلا تحيز بل تمنع وتعطي وتحرم وتأسو، وكذلك الظروف لها خير معين ـ إذ قد تساعد هي وقد تمانع. مما ينتج عنه تفاوت بين الأمم. إلا أن تيرغو اعتقد أن في التفاوت دليلا على أننا لا زلنا في بداية تاريخ العالم، وأن التفاوت آيل للاختفاء في المستقبل لا محالة.

على أن البادي أن ثمة فيلسوفين شذا عن هذه القاعدة كل الشذوذ؛ عنينا بهما دافيد هيوم وجون جاك روسو. الأول بالتشكيك في مفهوم "التقدم"، والثاني بمحاولته تفنيده. وهكذا كان هيوم بعيد التشكك بحيث ما افترض هو قط إمكان التوصل إلى أية نظرية تركيبية عامة للتاريخ، مهما دقت هي أو جلت، أو توقع احتمال حدوث قدر ملحوظ من التحسن في

أحوال البشر فيما يستقبل من الزمان. وقد ترتب عن هذا أن هيوم وإن هو اعترف بإمكان التقدم، فإنه قابل نظرية "التقدم غير المحدود للحضارة" بفتور وريبة. بل ذهب إلى حد القول: إننا غير متيقنين ـ بالرغم من كل مظاهر التقدم التي أحرزتها بعض الشعوب في الحقبة الخيرة ـ هل تقدم الإنسان في العصر الحاضر سائر في اتجاه نقطة كماله، أم أنه في طريقه إلى الانحدار بعد أن هو بلغها! على أنه بقدر ما امتنع الفيلسوف الشاك عن المشاركة في تفاؤلية عصره، فيما تعلق بالمستقبل، فإنه ما أنكر تفوق الحضارة الحديثة على القديمة. والشاهد على ذلك عنده: الارتقاء الذي حدث في الفن والصناعة. مما دفع به إلى أن يشيد بما صار يتمتع به الإنسان الحديث من حرية وأمان، وإلى أن يلاحظ: «سيبدو لمن ينظر إلى الموضوع نظرة هادئة أن الطبيعة الإنسانية قد استمتعت، بوجه عام وحتى لدى أبعد الحكومات تعسفا، بحرية أعظم من الحرية التي تمتعت بها إبان أرقى عصور العصر القديم».

أما البادي من رسالة روسو عن "أصل التفاوت بين الناس" (1753)، بحسب ما فهمه مجايلوه، فهو الانتهاء على نتيجة منطقية هي: إذا كان الانتقال من حال الفطرة إلى مجتمع المدنية بمثابة سقوط للإنسان من كماله الأول وانطراح، فهو إذن يدعو الناس إلى تحطيم المدنية والمجتمع المدني والعودة إلى الطبيعة عودة تامة! أَوَليس هو القائل: «أول من سور أرضا فَعَنَّ له أن يقول:"هذه لي"، ووجد أناسا على قسط كبير من السذاجة فصدقوه، كان المؤسس الحقيقي للمجتمع المدني. أَلاَ كم من جرائم وحروب واغتيالات، وكم ويلات وبؤس وفظائع كان أبعدها عن الناس، وكفاهم شرها، رجل قد هب فاقتلع الأوتاد أو ردم الحفرة وصاح بالناس قائلا: "حذار من أن تصغوا إلى هذا الدجال، فإنكم لهالكون إذا أنتم نسيتم

أن الثمار للجميع وأن الأرض ليست ملكا لأحد"»؟[21] قضي الأمر إذن وعد روسو أكبر عدو للصناعة والتقنية والحضارة، ومن ثمة للتقدم. أَلَا يشي هذا القول بأن تاريخ البشرية هو تاريخ انحطاطها لا تاريخ تقدمها المزعوم؟ لكن مهلا، فإن الرجل ما فتئ يوضح متحدثا عن نفسه: «في كتابيه الأولين [يعني الخطاب حول أصل التفاوت والخطاب حول الفنون والعلوم] ـ أكب صاحبنا على تدمير بقايا الوهم الذي استبد بالعقول فجعلها تعجب أيما إعجاب بأدوات بؤسنا [يعني الصنائع والعلوم وغيرها من أساليب التقدم] (...) غير أنه لا مفر من التسليم بأن ليس من شأن الطبيعة أن تتراجع القهقرى، ولا سبيل إلى العودة إلى زمن البراءة والمساواة ما أن نكون قد ابتعدنا عنه (...) ما فتئ البعض يتهمه [يعني نفسه] بكونه إنما أراد أن يهدم العلوم والفنون والمسارح والأكاديميات، وأن يرتد بالعالم إلى همجيته الأولى. والحال أنه، وضدا على ما اتهم به، شدد دوما على ضرورة الحفاظ على المؤسسات القائمة، مؤكدا على أن تدميرها لن يؤدي إلا إلى إزالة المسكنات مع ترك الرذائل كما هي، وإلى استبدال اللصوصية بالفساد»[22]. فلو صح القول بأن الحضارة لعنة على الإنسان، فلعله كان يبدو من المنطقي أن يوصي روسو بالقضاء عليها. لكنه لم يوح، على التحقيق، بأي اتجاه لتدمير المكتبات والأعمال الفنية وإخراس كل العلماء بله إعدامهم، أو بالخلاص من المدن وإحراق السفن...

ومع ذلك رد مجايلو فيلسوف العقد الاجتماعي عليه بأشنع الردود. رد هولباخ بالقول: إن التقدم الإنساني من "حالة الفطرة الطبيعية" إلى

---

21 - جون جاك روسو: **أصل التفاوت بين الناس**. ترجمة بولس غانم. مجموعة الروائع الإنسانية. المكتبة الشرقية. بيروت. 1972. ص. 79.

22 - J-J Rousseau, *Rousseau juge de Jean-Jacques*, dialogue 3, œuvres complètes, paris 1852, p.131.

"الحياة الاجتماعية" وإلى "الحضارة" أمر "طبيعي"، إذا ما نحن سلمنا بوجود ميل "فطري" عند الإنسان إلى الارتقاء بذاته. ولهذا لربما عنت العودة إلى بساطة الغابات والأحراش أو إلى أي مرحلة غابرة تجريد الإنسان من طبيعته أو مضادته لطبيعته المتأصلة فيه. وحتى على فرض أنه لو أمكن للإنسان القيام بذلك ـ ولن يمكن ـ لكان معناه الوحيد الشروع من جديد في القيام بالدور الذي بدأه أسلافه، ثم اجتياز نفس الأطوار المتعاقبة من التاريخ مرة أخرى. فلما بَعُدَ ذلك الأمر، فقد تبين أن التقدم ملازم لطبيعة الإنسان. كما رد فولتير، بوصفه، كما قال إرنست كاسيرر "نبي التقدم المتحمس بلا مدافعة"، والذي عد "التقدم" فكرته التي أثر بها على عصره.

وهذا آخر تخوم الأنوار الفرنسية نحو القرن التاسع عشر، أعني كوندورسيه الذي سار على خطى فولتير، رام في مؤلفه "صورة تاريخية لتقدم العقل البشري" (1793) بيان "التغيرات المتعاقبة في المجتمع البشري"، واستشراف "التأثير الذي تحدثه كل لحظة [من تاريخ البشر] في اللحظة التي تليها"، واستهداف أنه بفضل هذه التغيرات "يتحقق تقدم الجنس البشري نحو الحقيقة أو السعادة". فكان أن قسم هو الحضارة الإنسانية إلى عشرة عصور، عاشرها يقع في المستقبل: كانت خاتمة العصور الثلاثة الأولى (التي تضمنت تكون المجتمعات البدائية، ثم عصر الرعي الذي أعقبه، ثم عصر الزراعة) اختراع الحروف الأبجدية في اليونان. ورابع العصور هو تاريخ الفكر اليوناني حتى صنافة العلوم كما استحدثها أرسطو. وتقدمت المعرفة في العصر الخامس وشابها الغموض في ظل الرومان. أما سادس عصر فعصر مظلم استمر حتى عهد الصليبيين. وترجع أهمية العصر السابع إلى قيامه بإعداد العقل البشري للثورة التي جاءت بعد اختراع الطباعة. وبها استهل العصر الثامن. وبدأ عصر جديد بالثورة العلمية التي أحدثها

ديكارت وانتهت في حياة كوندورسيه بخلق الجمهورية الفرنسية سليلة الثورة. وبهذا جعل هو من التقدم في المعرفة مفتاحا لتقدم الجنس البشري، مؤكدا بذلك على "الوحدة التي لا تنفصم عراها" بين التقدم الفكري وتأثير العلم في القضاء على التزمت، من جهة، والحرية والفضيلة واحترام الحقوق الطبيعية، من جهة أخرى، مذكرا بأن كل الأخطاء السياسة والأخلاقية إنما مردها إلى المعتقدات الزائفة الناجمة بدورها عن الجهل بقوانين الطبيعة.

والظاهر أن "فلسفة التقدم" هذه لم يقتصر مداها على فرنسا وأنوارها وحدها، وإنما امتد ليشمل الأنوار الألمانية. يكفي للتدليل على ذلك إيراد مثالين لفيلسوفين تاريخيين أنواريين ألمانيين هما هردر وليسنج. الأول نشر كتيبا بعنوان "فلسفة للتاريخ للارتقاء بالبشرية" ضَمَّنَه اعترافه بأن التقدم مستمر، وأن كل شعب يبني فوق ما بناه الشعب الآخر، وأن علينا ألا نعتمد على الحاضر في حكمنا على العصور الغابرة، لأن علينا أن ننظر نظرة نسبية للظروف الخاصة بهذه العصور. فما تحقق الآن لم يكن ميسورا على الإطلاق فيما مضى، لأن كل ما ينجزه الإنسان مشروط بالزمان والمناخ والأحوال. أما الثاني فقد أوحى، في كتابه "تربية الجنس البشري"، بأن التقدم أمر حاصل لا سبيل إلى إنكاره، جاعلا لهذا التقدم مثلا أعلى - إدراك الله إدراكا كاملا. هذا مع تقدم العلم، أنه نظر إلى دراما التاريخ بوصفها السبيل إلى تهذيب الإنسان، ونظر إلى الأديان التاريخية بوسمها سلسلة تسعى إلى الاكتمال في الدين الحق الكامل الذي من شأنه أن يسمو بالإنسان إلى المكانة العليا والمنزلة الرفيعة.

هذا ولئن هي كانت من خلاصة يمكن أن نستشفها من القول بفكرة "التقدم"، فهي أنه عاكس التصور المسيحي في أمرين:

أولا؛ بينما كان هذا التصور يرى في أمر الحياة في الدنيا انحطاطا بعد الخطيئة وفقدانا لجنة عدن المأسوف على فراقها، صار مفكرو الأنوار إلى الإيمان، بالضد من ذلك، بأن البشرية في تقدم مضطرد.

ثانيا؛ عوض جعل التقدم أمرا لا يدرك إلا مجاليا في عالم آخر ـ الآخرة ـ كما كانت تعتقد في ذلك المسيحية، سعى هؤلاء المفكرون إلى "دنونة" هذه الفكرة الدينونية، وذلك بالتبشير بإمكان، بله حتمية، خلق الجنة على الأرض، مما أزال عن فكرة "إسعاد البشرية" هالتها الدينية، وأحل محلها تصورا دنيويا للسعادة: هنا وفي المستقبل.

-7-

موضوعة "السعادة"

مهووس هو عصر الأنوار بفكرتي "السعادة" و"الإسعاد" حد الجنون. وكثيرة هي التآليف في السعادة التي أنشأها ما سبق له في ذلك من مثيل في العصور التي تقدمته. إذ صدرت عشرات الكتب التي تحمل العناوين: "أفكار عن السعادة" و"رسالة في السعادة" و"عن الحياة السعيدة" و"التنبيه على سبيل السعادة" و"مقال في السعادة"...وما كانت العناوين المبشرة بالسعادة هذه لتهم الفرد وحده، بل صارت هي تعنى بأمر إسعاد الجماعة العناية. فظهرت بذلك عناوين، بكل لغات أوربا، شأن: "أسباب السعادة العامة" و"أفكار في السعادة العامة" و"عن السعادة العامة"...فما عادت الغاية من وجود الإنسان أمرا آخر سوى أن يحقق سعادته. وما عادت الغاية من الفلسفة سوى أن تساعد الإنسان على التنقيب عن وسائل تحقيق سعادته. قال ماوبيرتيوس في كتابه "مقال في الفلسفة الأخلاقية" (1749): «إن في الطبيعة مبدأ أكثر شمولا مما يدعى باسم "النور الطبيعي"، وهو اشتهاء أن يكون الإنسان سعيدا. وهذا المبدأ هو متوحد بالنسبة إلى جميع بني الإنسان، وهو قائم بالنسبة إلى أنبه الناس

كما هو بالنسبة إلى أغباهم». والحال أن المدقق في أمر السعادة يجد أن شأنه موقوف على تحقيق اللذة. ولهذا قال فولتير: «إن اللذة هي مطلب جميع الكائنات العاقلة وواجبها وغايتها...». كلا، ما عادت السعادة تدرك بتوسل طرق المسيحية من عفة وفقر وسياحة، بل صارعت هي تنتزع بطلب أوقات المتعة.

"إني أريد أن أكون سعيدا": هو ذا المبدأ الأول، مبدأ المبادئ والمبدأ السابق عن كل تشريع والمتقدم على كل مبدأ ديني. وقد أجلى هذا الأمر على أن «الجميع (...) كانوا يرددون أن الحقائق الهامة الوحيدة من بين جميع الحقائق، هي التي تساهم في جعلنا سعداء، وأن الفنون الهامة الوحيدة من بين جميع الفنون هي التي تساهم في جعلنا سعداء، وأن كل فلسفة تنحصر في الوسائل الناجحة في إسعادنا، وأن نهاية المطاف هي أنه لا يوجد سوى واجب واحد: هو أن يكون الإنسان سعيدا»[23]. انتهى شوق فلاسفة القرن السابع عشر إلى المطلق، وتم السعي إلى استنزال السماء إلى الأرض، وذلك على أساس أن أناسها ما كانوا يرغبون فيما كان يرغب فيه أسلافهم: السعادة الأبدية الأخروية بأي ثمن، وإنما صار شعارهم: «لا يمكن أن نشتري السعادة الأبدية بالشقاوة الدنيوية». ولهذا قال هلفتيوس: «بدلا من أن يحارب الدين الإقبال على الأمور الدنيوية ينبغي له، بالضد من ذلك، أن يقويه». تلك السعادة التي صارت تلتصق أكثر فأكثر بالرضا بالأمر الممكن، وذلك دونما ادعاء إرادة الأمر المطلق؛ أي أن أمرها أنها سعادة عادية ومتوسطة تقصي فكرة المراهنة على الربح التام في عالم آخر مخافة وقوعها في الخسران التام؛ إذ لا ضمان على الزمان، حتى ولو كان هو وعدا موقوتا. هي ذي سعادة هؤلاء الناس: دنيوية هي قبل أن تكون أخروية، وأرضية هي لا سماوية، وعاجلة هي قبل أن تكون آجلة، وفورية هي ـ الآن

23 – بول هازار: **الفكر الأوربي في القرن الثامن عشر**. الجزء الأول. ص. 21.

وهنا ـ قبل أن تكون مؤجلة، وغنيمة مكسوبة هي لا منحة موهوبة، وإرادية هي لا ظرفية أو صدفية أو عناية، وفردية هي بقدر ما هي جماعية، وجماعية هي بقدر ما هي فردية، ولا فرق، على أنه لا توجد سعادة فردية بلا سعادة جماعية، ومن هنا تحدث فلاسفة الأنوار عن واجب المساهمة في إسعاد الآخرين. أَوَ ليس أحد شعارات الأنوار كان هو ما صاغه الفيلسوف البريطاني مبدأ لفلسفته النفعية: «أعظم سعادة ممكنة، لأعظم عدد ممكن»؟ وإنها لباختصار سعادة التقدير والتدبير.

وبالجملة، يلخص لنا مونتسكيو هذه السعادة التي صارت مطلوبة في إسراره إلينا: «سوف أصدر عن مبدأ واقعي، وهو أني لن أطمح إلى بلوغ حال [سعادة] الملائكة، ولن أشكو من أنني لم أفز بها، وسأكتفي بالأمر النسبي...ما لي من نظام سوى أن احتمي عند الإفراط، وأن أنام ساعة السهر، وألا أضجر لا بسبب من الحزن ولا بإثارة من اللذة ولا بدافع من الحزن ولا بداع من التعطل». فإذن، ما كانت سعادتنا بسعادة البهائم التي نفترق عنها بأسمى صفاتنا، ولا كانت هي بسعادة الملائكة المستحيلة اللحوق.